الفصل السَّادس

عويل السَّيارة الأمنية يستدعي الذِّكريات, ثمَّة من وشي به, الاجتماع الهام وكأنَّه الأمس يلتمع في ذهنه مع كل ومضة لسرين سيارة الأمن المنطلقة, تنهب الأرض في الطَّريق إلى عالم سفلي, لا يعلم مغبة ولوجه, ولا ماذا سيلاقي فيه, ولا كيف سيخرج منه! يستشعر أنَّ الاجتماع الحزبي المغلق, وما تلاه من اجتماع سري مع "الجماعة", هما نقطة التَّحول المفصلية, ولرُبما في حياته كلها. فيه اصطفت لجنة السِّياسات بالحزب الاشتراكي بكافة أعضائها, لم ينتقص منهم واحد, أمر التَّحالف مع فصيل هلامي ك"الجماعة" ليس بالأمر الهين, ومنذ نشأة الحزب العريق, ورغم تزامن نشأته مع ظهور "الجماعة" على ساحة الحياة السِّياسية, لم يحدث هذا التَّلاقي والتَّحالف مطلقًا, كان لكل منهما خطه وطريقه المنفصل, طوال عقود طويلة من الزَّمن.

وأبدى شباب الحزب مؤازرة لمقترح "فايز", العضو البارز في لجنة السِّياسات بالحزب, وكان الشَّاب يتوقع هذه المؤازرة ويبني عليها, فهو منهم, وهم منه, وجميعهم يعلم يقينًا أنَّ الحزب ليس له دورًا حقيقيًا مؤثرًا في واقع النَّاس الأليم, وأنَّه لم يُحيّد السُّلطة يومًا عن مسارها الدِّيكتاتوري النَّزق, والأمر حتمًا يحتاج لطفرة نوعية, تنقل الحزب من كونه ديكورًا يُجمِّل الحياة الحزبية, إلى معارضة فعالة حقيقية, تقدر أن تغير وتحشد, كما "الجماعة" التي تصول وتجول بين دهاليز وأروقة الحياة العامة في الخفاء, رغم أنَّهم يقفون عاجزين عن المشاركة السِّياسية الرَّسمية؛ لكون دستور البلاد الحامي للوطن يمنع قيام أحزاب سياسية على أساس ديني.

"الجماعة" كما يظنها "فايز", قدرات وطاقات مكبوتة, وإن وَجدت مسارًا لمناطحة السُّلطة بشكل جدي؛ لغيرت الكثير, فلماذا لا يكون هذا المسار من

خلال الحزب. والأمر يرتكز على لُعبة السِّياسة الكبرى؛ تبادل المنافع. فالمقاعد التي يتحصَّل عليها الحزب الاشتراكي في البرلمان محدودة, تمرر بإرادة السُّلطة, بحيث يظهر البرلمان وكأنَّ ثمَّة حياة سياسية تُمارس, تتآلف من حكومة ومعارضة, في حين أنَّ هذه المحدودية في أعضاء المعارضة بالبرلمان, لا تقدم ولا تؤخر, ولا تُصلح معوج, وتضر من حيث المفترض الإصلاح, لكونها تعطي مشروعية للظلم وتمرير المصالح السُّلطوية تحت سمع ومرأى الجميع!!

"فايز" يطمح إلى طفرة, لن يحققها سوى التَّحالف بين أقطاب المعارضة, ومن ثمَّ ظهير جماهيري يحتشد في الانتخابات البرلمانية تُحركه أهداف وطنية واحدة. يرى "فايز" أنَّه من خلال الالتفاف والاصطفاف الوطني هذا, تقدر المعارضة, المُغلِبة لمصالح الوطن على مصالحها الحزبية الضَّيقة, أن تتحصَّل على مقاعد يُعتد بتأثيرها بالبرلمان؛ فيتمكنوا من مشاركة برلمانية حقيقية فعالة, وربما تشكيل حكومة ائتلافية.

ومن ناحية أخرى, سيكون الحزب بمكتسباته البرلمانية, بمثابة ظهير سياسي للجماعة, تقدر "الجماعة" أن تتكئ عليه, وتنفث عن طاقتها المكبوتة بما لا يخالف مبادئه, وييسر لها طريقها الدَّعوي والخدمي.

يومها أجاب أكبر عجائز الحزب, على حماسة الشَّباب واندفاعهم, والحنق باديًا على تغاضين وجهه العميقة: " نحن نستعدي الأمن, فلن يمر التَّحالف مرور الكرام, ولن تسمح السُّلطة الحاكمة بهذا الأمر!" ثُمَّ أردف, متابعًا وقع حديثه على الوجوه الشَّابة: ""الجماعة" أعمق وأدهى ممَّا تظنون, هم بالتَّأكيد سيكون لهم مطالب تفوق مجرد نقاط التَّلاقي بين الاشتراكي والإسلامي, ومن مجرد التَّيسير لدورها الخدمي والدَّعوي, وفي الغالب ستتنافى مع سياسة الحزب ومبادئه!" تدخل "فايز" عند هذه النُّقطة: "في اجتماعنا الوشيك معهم, تُوضع النِّقاط على الحروف, ونحدد بنود ميثاق التَّعاون بدقة" قال رئيس الحزب, وقد ظل صامتًا, يُراقب النِّقاش المحتدم: "نصوّت على الأمر" وكان طموح المستقبل أكبر من تخوفات الماضي وحساباته؛ فهمس الرَّجل مستسلمًا: "موافقة" وأردف بعد تنهيدة حارة, مُثقلة بالتَّفكير العميق: "غدًا نجتمع بهم, ونطرح وجهات النَّظر!" وانفض الاجتماع الطَّارئ, يعلو العجائز

الوجوم والقلق, ويعلو الشَّباب الحماسة والشَّغف للتجربة القادمة.

لكز الحارس "فايز" لينتبه, السَّيارة ذات العويل وصلت محطتها الأخيرة.

***

أحدهم يصرخ, يئن, استغاثاته تأتيني, تخترقني, تقتنصني من تسكعاتي معدومة الهوية! أيكون "ياسين" الخائف المرتعب بالخارج أصابه مكروه؟! لا, ليس "ياسين", هذا ليس صوته, من أين يأتي الصَّوت إذًا؟ رأسي يكاد ينفجر, أكاد أجن. شيء ما يبرق في ذهني, يلتمع من بعيد, رويدًا يمحو العتمة الحالكة الرَّابضة في ذاكرتي, يذيب جلمودها الصَّخري. هذا أنت يا "فايز", يا مسكين! أعرف وجهك! وجهك هو وجهي! وهذا الصَّوت المتألم يتضح, أعلمه, هو صوتك! هو صوتي!

"ماذا بك يا "فايز"؟! ماذا بك يا مسكين؟!"

المكان مُظلم...

نافذة وحيدة, يتسحب منها الظَّلام بلا قبس ضوء, وتقف الوحشة على حافتها طائر عُقاب يتربص. يبدو قبوًا أسفل الأرض, رائحته عطنة, هي خليط من الرُّطوبة والعرق والدَّم. تجلس مهمومًا يا "فايز", بائسًا على كرسي متهالك, مثلك تمامًا. ساقط أنت في حالة وسطية بين النَّوم واليقظة, يداك ترتشعان رعشة لا إرادية, وأنين ينساب رتيبًا من شفتيك المتجلط على جانبيها دم, يتخلل لفح الأنين آهة عاصفة بين الحين والآخر! ترتفع في المكان رنات أقدام, تُنذر بشر, تخترق وعيك الغافي, تلتفت, يشتعل المصباح الوحيد فوق رأسك تمامًا, منهًا ببدء العرض. فوج من غلاظ يتقدمهم ممشوق, خطورة الضَّابط تحوم من نظراته الحادة وتقف على أنفه المعقوف طائر عُقاب يستعد.

يلتفون من حولك, قطيع ذئاب يُحيط بوليمة شهية, وقد صارت ارتعاشاتك في أوجها, على أشُدها في حاجبك الأيسر. بلا مقدمات, ارتفعت يد الأضخم بصفعة مدوية؛ أطاحت بك من الكرسي المتهافت!

نحيل, حزين, بائس أنت!

أزاح الضَّابط برفق مصطنع الضَّخم الَّذي صفعك. ربت على كتفك. قال بلهجة ناعمة, فيما يدور من حولك, أفعى سامة تستكشف مكامن الفريسة قبل الانقضاض:

- ما اسمك؟

- أخبرتكم!

- لم تخبرني أنا.

- "فايز"!

- كم عمرك يا "فايز"؟

- ثلاثون!

- تؤ, تؤ, ما زلت صغيرًا.

فيض من انتفاضات يجتاحك, عشوائية متقطعة, وكأنَّما يسري في البدن تيار كهربي صاعق على فترات غير معلومة الزَّمن! والخوف يتملكك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك! أنت بائس للغاية, صدرك مكشوف بارز العظام, وعيناك غائرتان متورمتان, وخيط الدَّم الطَّازج من أثر الصَّفعة ينساب على جانب شفتك اليسرى, يضع أثرًا جديدًا على ياقة منامة النَّوم المتهرئة من الشَّد والجذب.

فح ضابط أمن الدَّولة بعد صمت:

- أنت وحيد أمك يا "فايز"؟!

طريقته النَّاعمة الممطوطة في الكلام, نظرات عينيه المستخفة, الابتسامة الملتذة على شفتيه الرَّقيقتين كشفتي أنثى متهتكة لعوب- كلها تفاصيل مستفزة مهينة! ولكنك في عالم آخر, لا تملك إرادة الرَّفض ولا رفاهية الاستهجان؛ فأومأت برأسك إيجابًا في صمت. استطرد:

obeikandl.com

- تأكل؟

- لا!

- تشرب؟

- لا!

- سيجارة؟

- لا أدخن!

- أدخن أنا.

أخرج الضَّابط سيجارة "مارلبورو"، من علبة سجائر ذهبية براقة، أسرع أقرب المخبرين بالثَّقاب، امتص مبسم السِّيجارة في تلذذ من يستمتع بتقبيل أنثى مُغوية، ونفث الدُّخان في مهل من لا يتعجل الأمور.

مُنشغلٌ أنت بمتابعة سحب الدُّخان تتلوى وتتبدد في سماء القبو الخانق الثَّقيل! تُراودك رغبة أن تتبدد أنت الآخر، تضيع في العدم، تنتهي من هذا البؤس الَّذي أنت فيه! تأتيك أفكار جاءت متأخرة: أنَّك كنت في غنى عن هذا العذاب وهذه المهانة، فأنت من عائلة كبيرة، تمتلك قصرًا، وأرضًا، وشركةً، ومصنعًا، والفقر لم يكن يومًا عدو، ولم يطولك يومًا ظلمٌ من أي نوع! مع هذا التَّفكير الَّذي يناوشك الآن كنت في مأمن، وما كان مكانك هذا القبو العطن! تعود وتسخر من الضَّعف المتربص بك هذه اللَّحظة، ومن هذا الفكر الَّذي يلومك على الزَّج بنفسك ومستقبلك في متاهات تبدو بلا نهاية! فما حيلتك وتركيبتك البشرية جاءت هكذا! تتألم للناس أكثر ممَّا تتألم لنفسك، فقرهم يستفزك، الظُّلم الواقع عليهم ينهشك، يؤرق مضجعك، دائمًا ما يراودك خاطر أنَّك اغترفت من الدُّنيا دونما سبب، وهم خرجوا بؤساء مُعدمين أيضًا دونما سبب، أنت تنشد العدل ليس أكثر، تريد إعادة التَّوزيع بين من يملك ومن لا يملك!

يعاود الضَّابط الحديث، وكأنَّ صوته قادمٌ من جُب سحيق:

- كفاك بهدلة يا "فايز"، يكفي ما جري لك، أخبروني أنَّ أمك كادت تجن عندما أخذوك ليلًا.. أمك يا "فايز" سيدة طيبة، من عائلة كبيرة، لم تعتد هذه الأمور.. أمك سيدة كبيرة في السِّن، ما لها غيرك في هذه الدُّنيا الصَّعبة.

ظهر التَّأثر عليك، واربد وجهك، عندما انعطف الحديث إلى هذا الاتجاه. الكلمات تخرج من فم الضَّابط تعريك، تكشف سترك وضعفك. ضممت قبضتك الملوثة بدمائك الجافة بشكل لا إرادي، ورمقت الرَّجل بنظرة حادة، ولكن البرود الَّذي قابلك امتص هجومك المغامر، لترتد نظراتك صريعة هامدة. أطرقت ثانية إلى الأرض، وتمتمت خافتًا:

- ماذا تريدون؟!

وضع الرَّجل قدمه على الكرسي منتشيًا بانتصاره، ربت السِّيجارة بسبابته الرَّفيعة الطَّويلة، تساقط الرَّماد على حذاءك وملابسك، أخذ نفسًا ممتدًا من السِّيجارة المتقلصة سريعًا، ومط شفتيه كما أنثى عربيدة ماجنة، نافثًا الدُّخان في وجهك، وقال:

- شيء بسيط.

تحاول استجماع شجاعتك، وتعاود السُّؤال بصوت رجوته أكثر تماسكًا:

- ماذا تريدون؟!

ابتسم الضَّابط، وربت على كتفك، بنعومة ثعبان يتحسس موضع اللَّدغة القادمة، وقال:

- نريدك رجلًا.

- أنا رجل!

نطقتها وأنت تشعر بعِرْي مقيت، وبالأرض تميد تحت قدميك.

قال الضَّابط:

- رجل لنا.

- ماذا تقصد؟!

- نريد أسماء "الجماعة" الذين اجتمعت بهم.

- أي جماعة؟! أنا لا أعرف شيئًا! لا أعرف شيئًا!

- وأعضاء حزبكم الذين اجتمعوا بهم.

- ليس لدي ما أقول!

- من نسق لهذا الاجتماع؟ وماذا تريدون من وراءه؟

- ليس لدي ما أقول!

وجعلت تكرر الجملة بشكل هستيري, وكأنَّ مسًا أصابك. انهال الغلاظ عليك ضربًا وركلًا, حتى تكومت على نفسك في أرضية الحجرة, لا يُسمع إلا أنينك الخافت المكتوم.

وضع الضَّابط قدمه على صدرك, وابتسامة تشفي تلتمع على شفتيه الرَّفيعتين, معاودًا السُّؤال:

- ما أسماء "الجماعة" الذين اجتمعتم بهم مطلع الشَّهر؟ تكلم. جعبتنا ما زال فيها الكثير. أنت لم ترشيئًا بعد.

تشعر أنَّك على شفا الموت, أنفاسك تتردد بصعوبة, وكل خلية في جسدك النَّحيل تئن وتتألم. فكرة واحدة تسيطر عليك, رغم حالتَّك المزرية: "لن أتكلم, كيف سأحيا ويدي ملوثة بدمائهم؟! ثمَّة من وشي بي! لكنني لن أشي بهم!"

- مكتبة القصر ممتلئة بكتب عن الاشتراكية؟!

- ...

- تقرأ لكارل ماركس!

- ...

- هل تظن حقًا أنَّ النَّاس سواسية كأسنان المشط؟!

- ...

- هل تبحث عن ثورة لقلب نظام الحكم؟!
- ...
- هل تظن أنَّ حكام البلد طغاة مستبدين؟!
- ...

صوت الضَّابط يأتيك كالحُلم, تشعر بروحك تنسحب رويدًا, وبالظَّلام يكتنفك, وعندما عاود المخبرون الكرة لاستنطاقك, بدا وكأنَّك قد فارقت الحياة؛ ما جعل الضَّابط يشير مُرغمًا بالتَّوقف, ووجهه الأنثوي الشَّرس يفيض بالحنق والتَّأفف.

أشعر بتلبك معوي, ورغبة لحوحة في دخول الحمام, وأنا الشَّبح الَّذي لا يأكل ولا يشرب, ولا من المفترض أن تنتابه مثل هذه التَّفاهات!! أمّا عن الخوف والقلق, فجبلان جاثمان! هذا تلخيص لما يعتريني! متأججٌ أنا بأشياء وأشياء, أفور وأغلي, أفكاري مضطربة, ومشاعري مضطرمة! بل الأمر استفحل من مجرد مشاعر وأفكار متوهجتان مستعرتان, داخلي بركان يفور, حممه تتصاعد, وأنفي يشتم رائحة شواء, وثمَّة أبخرة تتطاير من قبة رأسي. ما علمت وشاهدت, من ومضة الذَّاكرة العنيفة التي اجتاحتني واخترقتني, وحملت إلي أناتك وعذاباتك في المعتقل, يجعلني أتساءل: "ماذا كنت بالضَّبط يا "فايز"؟! وماذا حدث لك؟! وهل قُتلت هناك؟!" لا, لم تُقتل هناك, فقد كنت أصغر سنًا, بنحو عشر سنوات, كما أنَّك قُتلت في القصر, برصاصة اخترقتك في تمام القلب, أتتك من فوهة بندقية قناص, كان متربصًا بك بين أغصان شجرة الكافور, أعلى بيت الجنايني, المتناثر فوقه أعقاب سجائر "مارلبورو", نفس ماركة سجائر ضابط أمن الدَّولة القاسي الشَّرس! ما انصهر وانفلت من جلمود ذاكرتي, ونبش لنفسه مكانًا في أعماق وعيي, كان واضحًا جليًا, مثل فيلم سينمائي تملك لُبي وانتباهي.

"هل أنا قادر على القصاص من ضابط أمن الدَّولة, إن كان هو القاتل الَّذي أبحث؟!"

كيف, وقد مر على هذه الحادثة عشر سنوات, وما يدفع الضَّابط لاقتناصك على هذا النَّحو كما المجرمين, وقد كان يقدر أن يُجْهز عليك إذا ما أراد, ودونما

تهتز له شعره, قرأت ذلك في عينيه النَّافذتين, عينا القاتل الَّذي لا يهاب, ولا يكترث لحياة المثاليين أمثالك مثقال ذرة.

وتساؤل آخر يراودني: "كيف خرجت من هذه الأزمة يا مسكين؟! كيف نجوت منهم يا "فايز"؟! أم أنَّ الرَّصاصة جاءتك وأنت ما زلت عالقًا في شباك العنكبوت؟!" أنا مستعد لاستقبال إجابتك, اغزوني بالتَّفاصيل, واغمر هذا الشَّغف الَّذي يعتريني بضوء الحقيقة. أم استهوتك اللُّعبة؟! أن تُرسل حقيقتك تباعًا, في صورة دفقات لا أعمل لها حسابًا, ولا أعرف لها وقتًا! مرحى يا "فايز", ها أنت تستجيب, تخاطرني, تحدثني بحميمية صديق.

"ولا أدري كم مر من وقت, وأنا راقدٌ في المستشفى, ساقطٌ في غيبوبة تبدو بلا نهاية, ظنت أمي أنَّني لن أقوم منها من شدة وطأتها علي. بائسٌ محطمٌ أنا, من كثرة ما تناوبوا تعذيبي؛ كهرباء, صفعات, ركلات, كلاب شرسة, كل أشكال التَّعذيب والتَّنكيل التي قرأت عنها بين حنايا الكتب وظننتها محض خيال! كان يجب أن أنكسر ولا تقوم لي قائمة! أقولها صراحة بملء فمي؛ كان يجب أن أنكسر, أنمحق, أنخسف! أنا "فايز" المرفه ابن الجاه والحسب, "فايز" الَّذي ولد وفي فمه ملعقة ذهب, بيد أنَّ ما حدث كان مُغايرًا لكل التَّوقعات. المكابدة والمعاناة في بيت العناكب, جعلاني أُعيد اكتشاف نفسي, والتي كنت أحسبها هشة ضعيفة, وتتفتح عيناي على دخيلتي. بادئ ذي بدء, اكتشفت أنَّني أجيد الصَّمت, صمتٌ مُطبقٌ لا تعرف لغات الدُّنيا إليه سبيل, وأمتلك قدرة كبيرة على التَّحمل, كما اكتشفت أنَّ الألم له درجة يتصلب عندها, لا يتزحزح عن موضعه, وكأنَّ الألم يمتلك وجهًا من الرَّحمة لا يمتلكها بعض البشر.

لا أنكر أنَّني تمنيت الموت, ودعيت به في جوف اللَّيل! كانت أكثر ليالي حياتي ظُلمة وكآبة وخوف! فرائصي ترتعش, والدُّموع تتساقط بلا هوادة, وبلا إرادة, واستشعرت الموت قابعًا فوق رأسي, يترقب اللَّحظة المناسبة ليخترقني وينتزع من جوفي بقايا الحياة, غير أنَّ شيئًا ما كان يستفزني على المقاومة والتَّشبث بأهداب الحياة! لن أبوح, لن أشي بالرِّفاق, إن وشيت لصرت خائنًا للمنقبين عن العدل والحب! لو سقطت لفقدت ذاتي إلى الأبد! جراح الأجساد تندمل, ولكن جراح الأرواح تنزف حتى الموت! المعنى الأهم في حياتي لن أفقده مهما

فعلوا, مهما صعقوني بالكهرباء, وألهبوا ظهري بالسَّوط, وأطلقوا علي كلابهم المسعورة! فليفعلوا ما بدا لهم, ولكنهم لن يُفقدوني القيمة الأهم, لن أفقد الهدف, لن أشي بأحد, لن أتحول من صاحب مبدأ إلى مجرد واشي حقير, سقط في بئر الخيانة من أول تجربة.

وظللت في المستشفى لأمد طويل, مركدهر من الزَّمن, وعندما عدت إلى الحياة, كانت صفعة جديدة في الانتظار, لطمني بها "حسام" عندما عادني في القصر, لم يزورني غيره, ولم يخطر بذهني قط ما توترت به تفاحة آدم على طول رقبته, أثناء حديثه القاسي المقتضب"

***

تلتمع في ذهني حديقة القصر, تغلفها غلالة ضبابية تنقشع رويدًا. مشهد الغروب قاني, جنائزي, ونسمة هواء رقيقة تحوم بين الشُّجيرات. وأنت يا "فايز" تجلس منفردًا في ركن قصي, بعيدًا عن حركة الخدم, وعين أمك "جيهان" الجزعة عليك تتحلق من حولك, لا تنحسر عنك قيد أُنملة, من مكانها بالشُّرفة العلوية لحجرة نومها. يلتمع في عينيها, أنَّ هذا المنكمش على نفسه ليس "فايز" المفعم بالحياة سابقًا, "فايز" عاد غير ما ذهب, "فايز" تهاوت بداخله أشياء, وانتصبت أشياء, وتبدلت أشياء, وأنَّه الآن في محاولة ترميم مضنية, وأنَّ صمته هذا, ما هو إلا غطاءً محكمًا يُخبئ الحمم الفوارة داخله, وتساؤلات تلهبه وتوجعه, وأنَّ البنَّاء الدَّاخلي يعمل جاهدًا في جبر ما انكسر, ورتق ما انفتق. في عين "جيهان", إلمام بأبعاد المحنة تمام الإلمام, ورجاء أن يخرج الابن المصدوم من هذه التَّجربة وهو أكثر حكمة وخبرة بالحياة, وأن يترك رومانسيته وأفكاره الواهية التي كادت تورده التَّهلكة, ويدفنها للأبد.

ثمَّة من يتابع من بعيد, يتلمَّس الخُطى, حذرًا أن يراه أحد. شابة جميلة غاية الجمال, الهيئة تُوحي كونها من الخدم, ومع التَّفرس لا تمت لهم بصلة, أشبه ما تكون بأميرات الأساطير, بهية, حالمة, متوردة. الغادة حائرة, قلقة تترقب, تخاف أن يضبطها أحد في سعيها هذا. صوت تهشم العشب يجذبك من شرودك, تنظر تستطلع الخبر بعينين خبت منهما الحياة, تتسمَّر هي مرتبكة, شبح ابتسامة يقاتل ليطفر على شفتيها القرمزيتين, وأيضًا على شفتيك

openkalima.com

المذمومتين منذ شهور, تهمس بصوت بالكاد يُسمع:

- تعالي يا "طاهرة".

تقترب "طاهرة", تنتصب وجلة قُبالتك. تهمس لها:

- اجلسي.

تجلس الشَّابة على حافة الكرسي, طائر وجل يتأهب للطيران. الوجه زنبقة حمراء, والعينان بحيرتان قلق, مرتبكة لا تعرف ما تقول.

بعد طول صمت همست:

- ما أخبارك يا أستاذ "فايز"؟!

تسير في متاهة ضبابية, تتخبط في ذكريات قدم المهد, أيادي شبحيه تتقاذفك, تجذب نفسك وقد طال الصَّمت, تلملم نفسك لتفوه بإجابة متماسكة:

- في خير حال.

وتَغِيم سماء روحها بغبشة غيوم, تتكأكأ دموع في ركن العينين, تُوشك على الهطول لؤلؤًا منثورًا! لا تدري –يا فايز- بما يدور, ولا ترى ومضات البرق في بؤبؤ العينين, ولا هزيم الرَّعد في تهدج الصَّوت:

- سقط القصر في دوامة أحزان! كل شيء اتشح بالسَّواد! بلابل الحديقة كفت عن الشَّدو! والأشجار والزُّهور كستها كآبة! والسَّيدة الكبيرة لم تدع البكاء! والخدم علاهم السُّهوم! لا بسمة ولا ضحكة, لا أكثر من كلمات مختنقة بالعبرات! الحزن في أبشع صوره كان رابضًا هنا يا أستاذ "فايز", كلنا, كلنا!!

دمعتان بالفعل انفلتتا, وانسابتا على خديها الورديين, فزادتها الدُّموع سحرًا أسطوريًا وروعة.

الرَّوعة التي كست "طاهرة" ألهمتني أنَّ الحزن فنان متواطئ مع جنس حواء, فنان موهوب, يعلم أين يضرب فرشاته, ويرسم رتوشه باهرة الحُسن, يعلم بحسه المترع بالفن مكامن الجمال والسِّحر فيفجرها, ومخابئ القبح فيشذبها, يهب الحسناء حسنًا إضافيًا, والمعدمة على يديه تتخلق أنثى جديدة. ولكنَّك –يا فايز- لم تنتبه للروعة المجسمة أمام ناظريك, ولم تصلك الرِّسالة المبطنة في طيات الكلام, لو أنَّ جزءً من انتباهك كان حاضرًا لعلمت, ولكنَّك, وللأسف,

لم تكن أكثر من جهاز استقبال عاطب.

تمتمت:

- أشكرك يا "طاهرة".

بأناملها الرَّقيقة, مسحت عينيها سريعًا, وطافت بالمكان تتأكد أنَّ أحدًا ليس بالقريب, ثُمَّ قالت, تحاول أن تُشيع جوًا من البهجة:

- عندي خبر رائع.

تسأل وكأنَّك تستيقظ من نوم:

- خيرًا يا "طاهرة".

أجابت وعينيها تلتمع ببهجة, شمسان انقشع عنهما الغمام:

- نجحت في الثَّانوية العامة بمجموع كبير! والتحقت بكلية الآداب قسم فلسفة!

تنجح الابتسامة هذه المرة أن تغزو أخاديدك اليابسة:

- مبروك يا "طاهرة", تستحقين كل خير.

ترنو الفتاة بعينين ممتلئتين بالعرفان:

- الشُّكر لك, من يُصدق أنَّ "طاهرة" الخادمة, ابنة "ياسين" الخادم, تلتحق بالجامعة! ما حدث هذا إلا بروعة وجودك أستاذ "فايز"!

- لا تقولي هذا.

أردفت "طاهرة" بصوت منحه التَّهدج ألق:

- كيف لا أقول؟! وأنت من شجعتني وأخذت بيدي, وشرحت لي ما استعصى علي!

ارتفع صوتٌ مُغتاظ يُناديها؛ انتفضت له "طاهرة" واقفة, وكأنَّها ضُبطت بجُرم. كانت "جيهان" في الطَّريق, بخطواتها التي صارت قصيرة بطيئة, وعيناها تشتعل بغضب.

وأرعدت:

- ألا تكفيك الدِّراسة التي تشغلك عن عملك؟!

تمتمت "طاهرة" مُربدة الوجه:

- آسفة يا سيدتي!

بعنف قالت "جيهان":

- اذهبي إلى عملك.

تعثرت "طاهرة" في خطواتها المضطربة, وجعلت "جيهان" تتابعها بعينين غاضبتين.

تجلس "جيهان" قُبالتك, تتأملك في صمتك, دُونما كلمة تشرخ بها قدسيتك, عيناها فقدتا الغضب الَّذي سكنهما, وقت رأت "طاهرة" تحدثك, وانساب منهما حب أموي دافئ جارف.

تنهدت, وزفرت بقوة:

- ليتك تتعلم يا "فايز"!

تلتفت, وكأنَّك تنتبه لوجودها:

- أتعلم ماذا يا أمي؟!

رمقت "طاهرة" في ولوجها القصر:

- تتعلم من تجارب الحياة!

ومالت تجاهك, يسكن عينيها مزيجًا من القلق والحنق:

- يوجد شخص يريد مقابلتك!

وأردفت بلهجة متوترة بالرَّجاء:

- رغبتي ألا تقابله, أريدك أن تقطع صلتك به! من أجل أمك يا "فايز"! أمك صارت سيدة مسنة! لن أحتمل أن تضيع مني! لن أحتمل!

وانسابت عيناها بالدُّموع, وجعلت تنشج. بكائها هذا رد إليك بعضًا من يقظتك. اقتربت متأثرًا بشدة, وأخذت رأسها الدَّامع في صدرك الضَّامر, وأردت أن تطيب خاطرها فلم تجد ما تقول!

وبعد صمت طال تكلمت:

- من يريدني يا أمي؟!

رفعت رأسها, ومسحت دموعها:

- "حسام"!

***

في مُعترك الحياة, وخضم بحرها الهائج, والمرء يُغالب شراسة الموج وضراوته,

مجتهدًا أن ينتصر لإرادته, فجأة يقنصه هاجس المحاسبة, وأن يقف مع النَّفس برهة. وقد يُفرض الأمر عليه فرضًا كما حدث مع "فايز" بعد مقابلة "حسام", فيتسمر المشهد الدَّائر, بكل عنفوانه وجبروته, مثل فيلم "أكشن" سينمائي عنيف, انقطعت إشارته, فتجمد الأبطال على وضعهم, لا يتحرك منهم ساكن. وفي عقل "فايز" انتصبت الأسئلة تنتظر إجابة:

"هل أنا على الطَّريق الصَّحيح؟!".

"هل ما أقاتل من أجله يستحق؟!".

"ألست في غيبوبة, غافلًا روعة الحياة وبهجتها, والأجدى أن التفت لما بين يدي, ضاربًا عرض الحائط بهذا الوهم؟!".

وأخذته علامات الاستفهام, الشَّرسة, المهاجمة بضراوة شديدة, بين هنا وهناك, كل سؤال يهاجم جزءً من ذاته التَّائهة, المقيمة بإخلاص على جوهرتي "الحُلم" و"الأمل", يُراوده خاطر, أنَّه يُشبه دجاجة منتفشة الرِّيش, مذعورة الخاطر, تفترش مقعدتها الدَّافئة بيضتين, تخاف أن يلفحهما تيار الهواء البارد فيفسدا! جاهلة أنَّها تُكرس حياتها في دائرة لن تنتهي, أو فيما لا طائل وراءه, لأنَّه, وبمنتهى الوضوح لمن يرى, كل نتاج مهدور مسفوح دمه, ما لم يكن ثمَّة ضامن حقيقي لهذا الوليد في البيئة الحاضنة.

وشرذمته سهام الأسئلة, وشعر بالتَّشظي, وأنَّه صار نثارًا كونيًا يهيم في رحابة الكون الفسيح, ضعيفًا جدًا, لا يساوي جناح بعوضة, وأنَّ ما يناوشه من حُلم هو بالفعل "هوس", ومحض أكذوبة, والأجدى حقًا أن يستفيق, وألا يتمادى, وألا يزج بنفسه في ترهات, ستأخذ من العمر والصِّحة ولن تُعطي, وألا يترك الحياة تتسرسب من بين يديه, مثل سفيف رمال, تسلُبه ريح عاصف لا تهدأ ولا تستكين.

ومكث "فايز" في قلب العتمة والتَّخبط, يحدوه أمل في ضوء يلتمع في جوف الظُّلمة التي عششت الأركان والحنايا, وأحالت فضاء النَّفس إلى ليل مُدلهم- يلقفه من دوامات اليأس! شيء ما, إرادة ما تنتصب على فرس جَمُوح تجمع نثار النَّفس الهائمة في فضاء الكون المترامي, وتعيده خلقًا جديدًا بأمل في الحياة جديد, وتمسح على صدره بحنو, مثل أم رءوم. أملٌ مبهجٌ ينبثق في

حياته المعتمة, غير ذاك المضني المكفهر الَّذي أعياه وأوجعه وأورثه النَّصب, فينهل من صدر الحياة وشهدها غير عابئ بما فات.

لم يكن الانقلاب الثوري في عقيدة "فايز" بسبب محنة المعتقل, ولكن بسبب الأخبار الصَّاعقة التي نقلها له "حسام".

obeikandl.com